دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 34، العدد 3، 2007

المشترك اللغوي بين النظرية والتطبيق

*حنان إسماعيل عمايرة**

ملخص

تبحث هذه الدراسة في ظاهرة لغوية من ظواهر اللغة العربية ، وهي ظاهرة المشترك. وينقسم المشترك اللغوي إلى قسمين رئيسيين ، أولهما : المشترك المعنوي ، ويتضمن : أن يكون للكلمة الواحدة معنيان أو أكثر ، وأما النوع الثاني فقوامه كلمتان أو أكثر من مصادر مختلفة تتعرض إلى تبدلات وتغيرات لتجتمع أخيرا في كلمة واحدة .

وقد تعرضت الدراسة إلى البحث في جوهر هذه الظاهرة مستجلية أسبابها كما ذيلت ببعض النماذج التطبيقية التي من شأنها أن تجسد الجانب النظري وتوضحه.

الكلمات الدالة: المشترك اللغوي، تولد الألفاظ، النظرية والتطبيق.

المقدمـــة

ضمن رحابة علم اللغة، تتزيا الظواهر لمن يرقبها عن بعد، بما يوحي بالسكينة والهدوء، وهو انطباع أولي ينقُصه البحث في العالم الداخلي لها، فلا يلبث الناظر أن يدرك أن ما راقه سكون خادع ليس إلا، وصورةٌ خارجية تخفي داخلها عالماً مواراً متدفقاً بالحياة والتجدد.

ومن ذاك العالِمِ الداخلي النشط، نطالع ظاهرة من أكثر الظواهر تعبيراً عن فكرة النمو والتطور في اللغة، وهي المشترك اللغوي.

تعرضت هذه الدراسة لمفهوم المشترك اللغوي في العربية، موضحةً ما كان من تعدد في فهم هذه الظاهرة، وما ترتب على ذلك من تعدد التعريفات، ومن ذلك: المشترك اللفظي والمشترك المعنوي، والمشترك الكتابي. وأما في الإنجليزية، فقد كثرت المصطلحات الدالة على هذه الظاهرة، وقد ذكرتْها الدراسة مبينة أوجه الاتفاق والافتراق بينها وبين المصطلحات، ومن هذه المصطلحات: Polysemy، Homonym، Homophone.

ثم كانت نظرة إلى رحلة المشترك، مع تأكيد لأهمية الدراسة متعددة الأضواء لهذه الظاهرة، كأن تدرس في ضوء معجمي دلالي يفيد من معطيات علم الصرف. وقد فُصل ضمن هذا العنوان الحديث عن خضوع ظاهرة المشترك في أحايين كثيرة إلى الاعتباطية في الوضع، وغياب العرى الرابطة بين المعاني. كما تضمنت الرحلة طرحا للعلاقة الرابطة بين المشترك والترادف.

وقد حاولت الدراسة استجلاء العوامل والأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة، مؤيداً بالأمثلة الدالة. وقد تحدث متناولو المشترك عن مفهومه، والتقطوا نماذج من الأمثلة التي تحفل بها معاجم العربية. وممن تحدث عن المشترك ابن جني في (الخصائص)، والسيوطي في (المزهر)، وابن بنين الدقيقي النحوي في كتابه (اتفاق المباني وافتراق المعاني)، وجاء حديث الدقيقي في مصنفه أكثر تفصيلاً من المصدرين السابقين، فقد ذكر من أشكال المشترك ما يكون الاختلاف اللفظي فيه بسيطاً، مما ينتج عنه فرق معنوي بسيط أيضاً، ومنه قولهم في الأكل بأطراف الأسنان قضم وبالفم كله خضم، وكلاهما من ضرب الأكل، وقد اشترك اللفظان في حرفي الضاد والميم. كما تعرض الدقيقي إلى ظاهرة اتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، ومن ذلك كلمة ثور، التي دلت على ارتفاع الغبرة وظهور الحصبة وانتشارها وهيجان الجراد والرجل الرقيع(1)، ورصد لذلك أمثلة ينطوي عليها كتابه القيم، ومن جانب آخر تناولت بعض المراجع اللغوية الحديثة المشترك في اللغة غير أنه من الملحوظ أنه كان تناولاً مجملاً لم يقف عند تفاصيل الأمر وأبعاده المتعددة. وكان ممن تعرض للمشترك إبراهيم أنيس في (دلالة الألفاظ)، وأحمد مختار عمر في (علم الدلالة)، وتوفيق شاهين في (المشترك اللغوي نظرية وتطبيقاً).

وفي كفتي ميزان اللغة، توزعت مظاهر الإيجابية والفائدة

© 2007 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية، جميع الحقوق محفوظة.

---

* مركز اللغات، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2005/12/6، وتاريخ قبوله 2006/8/7.

في كفة، وسلبيات الظاهرة في الكفة الثانية، ومن باب التوضيح العملي، ذُيلت الدراسة ببعض النماذج الأدائية على ما يظن أنه بحاجة إلى إنارة، من أبعاد ظاهرة المشترك وتلافيفها الداخلية، التي يصعب الكشف عنها دونما تتبع لهيئات الكلمة وما اكتسبته أو اطّرحته عبر تاريخها.

مفهوم المشترك

المشترك من المصطلحات الخلافية، التي تعددت حول مفهومها الآراء، فهناك من ارتضى تعريفه بأنه ما اتحدت صورته واختلف معناه، على عكس الترادف. يقول السيوطي عن المشترك(2): "اللفظ الواحد الدال على معنيين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة". وفي المقابل نجد علم اللغة الحديث يعتني بالتفريق بين ما يسمى (Homonymy) المشترك اللفظي، و(Ploysemy)(*) المشترك المعنوي أو تعدد المعنى(3).

وأما الخلاف على مفهوم المشترك في العربية حديثاً؛ فمرده إلى التأثر بعلوم اللغات الأخرى، التي تفرق بوضوح بين نوعين من المشترك: واحد منهما فقط، صرح به علماء اللغة القدماء، وهو ما يسمى بالمشترك المعنوي، أو تعدد المعنى Polysemy، وفيه تحمل الكلمة الواحدة معنيين أو أكثر، ومثاله ما تشتمل عليه كلمة (عين) من تعدد في المعنى.

وأما النوع الثاني من المشترك، وهو المشترك اللفظي Homonymy فله تعريف مختلف، نُقل عن مصنفات في علوم اللغات الأخرى، كالإنجليزية، وهو أن توجد كلمتان أو أكثر، من مصادر مختلفة، وتتعرض هذه الكلمات إلى تقلب وتبدل عبر الزمن، لتجتمع في كلمة واحدة. ويضرب أولمان مثلاً لذلك بكلمة Sound التي يرد لها أكثر من معنى معجمي، فهي تعني الصحة، وهذا المعنى أصله من الكلمة الجرمانية القديمة gesund، وهناك معنى آخر هو الصوت، وهو تطور عن الكلمة الفرنسية Son التي ألحقت بها (d) متأخراً، ثم هناك معنى سبر الغور، وهو امتداد للفعل الفرنسي Sounder(4).

ومن أمثلة المشترك اللفظي في العربية كلمة (الأين) وهي تدل على الإعياء والتعب، كما تدل على ضرب من الحيات أبيض اللون، وهذا المعنى الثاني غير أصيل في الكلمة، وإنما جاء نتيجة تبادل صوتي مع كلمة أخرى هي (أيم)، ومن معانيها: نوع من الحيات البيضاء(5).

وبهذا يكون المشترك اللفظي ناتجاً عن تطور اللفظ، بعكس المشترك المعنوي الذي قوامه تطور المعنى في اللفظ الواحد. وقد انطلق لغويو العرب في دراسة المشترك من زاوية الاشتراك في المعنى، دون تفريق بين النمطين المذكورين (اللفظي والمعنوي)، فإن باب المشترك عندهم جاء مشتملاً على أمثلة تخدم النوعين، دونما تمييز يذكر، وكانت التسمية الغالبة على أمثلتهم هي (المشترك اللفظي)، أما مصطلح (المشترك المعنوي) فلم يكن له حضور، فيما اطلعت عليه.

ويتخذ مفهوم المشترك أبعاداً تفرزها احتياجات كل لغة، بحسب طبيعتها وظواهرها، ففي الإنجليزية اقتضى الأمر تفريقاً بين (ما اتفق في جانبه اللفظي واختلف في معناه مع تباين صوتي اللفظين، وهو من باب الاشتراك أو التجانس الكتابي) أو ما يسمى Homograph، فكلمة Lead تعني مقود السيارة، كما تعني المعدن أو الرصاص، ولكن الكلمتين تختلفان في النطق. وأما التماثل في النطق والاختلاف معنى ورسماً، فقد سمي Homophone، ومثاله الكلمات: Site (موقع) وSight (رؤية أو مشهد)(6).

وفي ألفاظ العربية لفظٌ واحد يعطي معنيين، غير أن كلا منهما يعود إلى جذر مختلف، كما هو الحال في (أدفا) التي تحتمل أن تكون من (دفَأ) بمعنى الدفء والحرارة، أو من (دوَّف) بمعنى الإجهاز والقتل(7).

ولم يأت الخولي بجديد حينما ذكر مصطلح (الاشتراك الكتابي)، وعرفه بأنه تطابق كلمتين أو أكثر في الشكل، مع الاختلاف في المعنى أو النطق أو كليهما، ضارباً لذلك المثل بكلمة Fair التي تعني المعرِض كما تعني العادل(8). ولعل الاستكثار من المصطلحات هنا لا يخدم الأمر، خاصة أن المصطلحين الأساسيين (المشترك اللفظي والمشترك المعنوي) لا يزالان يعانيان من مسألة التفريق بينهما، وصعوبة ذلك.

هل ثمة معيار واضح يفرق بين المشترك اللفظي Homonym والمشترك المعنوي Polysemy؟

يضعنا التفريق بين نوعي المشترك أمام مشكلة حقيقية من مشكلات الدلالة، ومن المقترحات المطروحة للتمييز بينهما البحث عن المعنى المركزي (لب المعنى) لتبين ما إن كانت المعاني المتفرعة عنه تحتفظ ببعض منه، فإن صح الأمر على هذا الوجه، عد من باب المشترك اللفظي، ومثال ذلك: مرد الخبز إذا لينه بالماء، ومرتَ الشيء بالماء إذا نقعه فيه حتى صار مثل الحساء(9)، فالكلمتان في الأصل لفظة واحدة داخلها تبدل صوتي مسوغ، وهو التاء من الهمس إلى حالة الدال المجهورة، بسبب تجاورها مع الراء، وهي صوت مجهور.

ومع كثرة الكلمات التي تتدرج في إطار يمكن فيه تلمس وجوه مشتركة من المعنى، إلا أن ثمة تياراً آخر طاغياً من

الألفاظ التي نقف حائرين أمامها، ونتردد في البت بين علاقات المعاني فيها، وكثيراً ما نستشعر وجود فجوات زمانية تفصل بين المعنى والمعنى، مما يصعب الربط بينها، وإن كان من المحتمل أن العلاقة وطيدة بين المعنيين؛ فالسبب في غموض العلاقة بين بعض معاني المشترك اللفظي، أنها قد تكون مرتبطة بعلاقات تاريخية ولدت هذه المعاني البعيدة للكلمة، كأن نقرأ من معاني العين أنها دات على الاعوجاج في الميزان(10).

إن اعتماد مبدأ الوشائج والعلاقات بين الألفاظ مقياس مفيد جداً في معرفة نوع المشترك الذي تنتمي إليه، غير أن الأمر لا يخلو من محاذير، فقد نصادف معنيين ضمن معاني الكلمة الواحدة، لا رابط بينهما، فيكون من الصعب القول بوجود معنى مركزي في بقية المعاني(11)، ومن ذلك ما يواجهنا في كلمة أرض، التي نجد في معانيها: أسفل قوائم الدابة، والاسترخاء والراحة، والاهتزاز، وحركة الرأس المرتعشة الناتجة عن الزكام، ويظل تصنيف هذا المثال ضمن المشترك المعنوي أقرب إلى الإقناع ما لم يتوصل إلى أصل (جذر) آخر تحدرت منه المعاني غير المتجانسة للكلمة(12).

ويقترح – في العادة – النظر إلى اللفظين المتطابقين هجاء ونطقاً اللذين يدخلان باب المشترك من خلال مشتقاتهما، فإن كان منهما مشتقات مختلفة، فهذا يعني أنهما في الأصل كلمتان تنتميان إلى مادتين معجميتين متباينتين(13). كما يرى أولمان أهمية النظر إلى الموضوعات الداخلة ضمن معاني الكلمتين، فإن كان أحد اللفظين تختص معانيه بموضوع عام يختلف عن موضوع المعاني المندرجة تحت الكلمة الأخرى، فإن هذا يعد من باب المشترك اللفظي(14).

من المشكلات التي تحيط بهذا المجال، مسألة الخلط بين المعنى الأصلي، والمعنى المجازي المتفرع عنه، وفي هذه المسألة أقوال؛ فبعضهم يرى أن المجاز ينبغي أن يقصى عن دائرة المشترك، فإذا اتضح مثلاً أن أحد المعنيين هو الأصل وأن الآخر مجاز له، فلا يصح أن يعد هذا من المشترك اللفظي(15).

وفي المقابل، هناك من يهتم بالتفريق بين نوعين من المجاز أحدهما حي لا يزال يثير فينا الدهشة والغرابة، مثل كثير من المجازات المستعملة في لغة الأدب. والنوع الثاني من المجاز هو المجاز الميت، أي الذي أمسى جزءاً من معنى الكلمة، بشيوعه وأُلفته، مما أطفأ الشحنة البلاغية فيه، ومن هذا قولنا: عين الإبرة، عقرب الساعة، رجل السرير... وهذا النوع – عند الباحثين – هو الأولى بأن يدخل في موضوع المشترك(16)، ومن البدهي أنه من المشترك المعنوي.

المشترك اللغوي: مسائل مطروحة للنّظر

يمتاز المشترك بأنه ظاهرة حاضرة بوضوح في اللغة العربية، وهو بكثرته علامة عليها وخصيصة(17)، وليس أدل من تعبير ابن جني عن أحد نوعيه (المشترك اللفظي) في مقدمة حديثه عن تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني بقوله: "وهذا غور من العربية لا ينتصف منه، ولا يكاد يحاط به، وأكثر كلام العرب عليه، وإن كان غفلاً مسهواً عنه"(18).

والمشترك من الأبواب التي يصعب رسم حدودها، فلا يمكن أن يقنن في إطار المعجم والدلالة أو ضمن علم الصرف؛ فهو باب متشعب، نجده ينادي بدراسته ضمن عدة إضاءات، فكلمة (جوازيه) في البيت الآتي تعد وجهاً من المشترك:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرفُ بين اللهِ والناسِ

فكلمة (جوازيه) تحتمل أن تكون جمعاً لإحدى كلمتين: إما جمع جاز بمعنى شاكر، وإما جمع جزاء. وهكذا كانت الصيغة الصرفية مشتركاً بين معنيين يحتملهما السياق(19)، وليس بالضرورة أن تكون كذلك مع سائر الأبنية ذات الأقيسة.

وكذلك يقال في (شهود):

ومِن الرجال أسِنّةٌ مذْروبة
ومزنّدون شُهودهم كالغائبِ

إذ تحتمل (شهودهم) أن تكون مصدراً أو اسم فاعل جاء على هيئة جمع(20).

ومن ذلك ما أشار إليه ابن جني في شرحه لديوان المتنبي لدى تعليقه على بيته الشعري:

أغالب فيك الشوق والشـوق أغلـب
وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب(21)

فقد أورد معنيين لكلمة (أغلب). واعتماداً على تصنيفها الصرفي، فهي إما اسم تفضيل، ويكون المعنى أن الشوق أغلب منه، وإما صفة على وزن أغلب أي غليظ العنق.

والمشترك اللغوي – كالحال فيما يعترض علوم الإنسان الفكرية والنفسية – يعاني الدارس فيه، من مظاهر الاعتباطية في الوضع ونسبية الأمور، الشيء الكثير.

وليست المعاناة هنا خاصة باللغة العربية، بل إن ذلك ينسحب على المشترك اللفظي في لغات أخرى، كأن يستفهم إبراهيم أنيس عن العلاقة بين Pupil بمعنى بؤبؤ العين وPupil بمعنى تلميذ؟(22).

ومن المتّفق عليه أننا نتلمس بوضوح العلاقة والروابط

بين مدلول وآخر، كالربط بين عين الإنسان وعين الماء في اللغة العربية، والعين بمعنى الجاسوس، وذلك بالاستعانة بالربط بين صور الأشياء الحسية، أو ما يكون بينها من علاقة ندركها بالعقل، الذي يكشف بدوره عن الأسس النفسية لتلك العلاقة، إلا أن مثل هذا أيضاً لا يخلو من السؤال: إذا كانت هناك علاقة بين عين الإبرة وعين الإنسان، فلماذا لم يكن التعبير واحداً في اللغات جميعاً؟

وعلى الرغم من دور الجانب الصوتي في تهيئة السبيل أمام خلق كلمات تنتمي إلى جنس المشترك، إلا أن ثمة عوامل أخرى تقف دون ذلك، ويركز ستيفن أولمان على هذا الجانب الطريف، مستشهداً بالكلمتين: quean وqueen اللتين بقيتا دون اتحاد، على الرغم مما يبدو بينهما من انسجام صوتي وتقارب، وهو يعزو السبب إلى أن quean تحمل معنى اجتماعياً سلبياً، إذ تدل على الفتاة سيئة السلوك، بينما كلمة queen التي تعني ملكة، ظلت تحظى باحترام، ومهابة اجتماعية(23). وعلى الرغم مما يبدو في المثال من معقولية، لا يمكن تعميم هذا الأمر على الكلمات التي تتشابه ولكنها لم تتحد في لفظة واحدة، بل قد نجد اللفظة الواحدة تتطور فتتولد عنها لفظة ثانية تشابهها صوتاً (الظاهرة المعاكسة).

إن تعدد المعاني في المشترك اللغوي، قد يكون مقصوداً لعلاقة مشابهة ما، أو لعلاقة اعتباطية أو غير معروفة. وكثيراً ما اختص أحد معاني المشترك بوصفه مصطلحاً علمياً، وهنا يكون وضعه مقصوداً متعمداً، كالإقواء في الشعر، وعلاقة المشابهة هنا واضحة بين إقواء الحبل – وهو اختلال يقع فيه، بأن يغلظ في جانب منه – وبين الخلل في الشعر.

وقد يجري تغيير مقصود في المعنى، فيخصص لفظ ما فيصبح مصطلحاً علمياً للدلالة على ظاهرة أو جزئية منها، كإطلاق مصطلحات شعرية على حروف بعينها في القافية، ومن ذلك: التأسيس والتوجيه والروي والصلة، ويمثل على هذه المصطلحات بقول الشاعر:

ألا طالَ هذا اللّيلُ وازور جانبه

فالألف تأسيس، والنون توجيه، والباء حرف الروي، والهاء صلة(24). وفي مثل هذا التغير المقصود، غير التلقائي، فإن النظرة الأولى لا تفيد كثيراً في إيجاد علاقة بين المداول، والمصطلح الدال عليه، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يبحث عن سر هذه التسميات عند واضعيها، وربما لا نوفق في الوصول إلى نتيجة نقتنع بها.

ومن لطائف الأمور، ما يرى في المشترك اللغوي من محافظة الكلمة على أب المعنى، مع تطور زمني طبيعي، وخاصة فيما أضافه الاستعمالُ العامي، كالفعل (بص) في العامية المصرية، المستعملة بمعنى نظر، والأصل في معناها هو: بص الشيء إذا لمع وبرق. ومن ذلك أيضاً الأرف، للشيء الذي نعافه، وأصل معناه: التهمة، ويقال قَرفْتُ الرجل إذا عبتُه(25).

وفي المقابل، يطلعنا المشترك على بعض غرائبه، كالمثال الذي يسوقه السيوطي، نقلاً عن العرب أنها كانت تقول: كذب عليكم الحج بمعنى وجب، وأغلب الظن أن هذا من باب التصحيف، لغرابة الاستعمال من جهة، ولأن المثال مذكور على أكثر من وجه نحوي، فكلمة (الحج) جاءت تارة مرفوعة على أنها فاعل، وتارة منصوبة على الإغراء، مما يشعر باضطراب الجملة ويشكك في صحتها على هذا الوجه.

"إن كل مشترك يحمل بداخله ترادفاً"(26)، تحمل هذه العبارة معنى غير دقيق، من شأنه خلق اضطراب بين المصطلحات والمفاهيم، فالمشترك ظاهرة لغوية تقابل الترادف ولا تختلط به، وهذا الأمر واضح من خلال تعريف كل من المصطلحين والأمثلة الدالة على كل منهما، فالمشترك المعنوي مثاله تعدد معاني كلمة (خال) كدلالتها على الشامة، وأخي الأم(27). وأما الترادف فأمثلته كثيرة، ومنها أسماء السيف وأسماء الخيل وغيرها. وواضح أن لا علاقة بين المشترك والترادف، فكل منهما يمثل ظاهرة مستقلة، بل يبدو أن العبارة "المشترك اللفظي نقيض الترادف"(28) أقرب إلى الصحة، ففي المشترك تقدم الكلمة الواحدة معاني متنوعة، وإن ربطت بينها علاقات متينة أو واهية. وأما في الترادف فإن الكلمات تتعدد والمعنى واحد، فالتقابل واضح بين المصطلحين.

عوامل تولد المشترك اللغوي

1- العامل اللهجي:

قد يتواضع على لفظ في قبيلة من القبائل، ثم يعبر عن معنى آخر باللفظ نفسه عند قبيلة أخرى، ويشتهر اللفظ بالمعنيين، (وهذا مما يؤيد القول بعدم توقيفية اللغة)(29). ومن ذلك إطلاق (الهجرس) على القرد في لهجة الحجازيين، على حين دلت على الثعالب عند بني تميم(30). واستعملت (الألفت) بمعنى الأعسر عند تميم، واستعملها بنو قيس بمعنى الأحمق، وهذه الإشارات إلى استعمالاتها عند هذه القبيلة أو تلك نجدها مبعثرةً في كتب اللغة عامة(31).

2- انبثاق الخاص من العام (Narrowing):

إن أكثر الأصول التي تشتق منها الألفاظ للدلالة على أمور جديدة، هي ذات معنى أولي عام، ولذلك فإن هذا المعنى العام يكون مادة صالحة لإطلاقه على مسميات مختلفة تشترك في تلك الصفة أو ذلك المعنى العام، ومن ذلك كلمة (الدليل) التي دلت على من يرشد إلى الطريق، وعلى الدليل السياحي، وعلى الكتاب المخصص للسياح، في وقتنا الحاضر، كما يطلق على الحجة المنطقية، هذه المعاني كلها ينطبق عليها أنها تدل على القصد وترشد إليه(32). وكذلك كلمة (المشْق) وتدل على السرعة والخفة، ومن هنا أطلقت على سرعة السير، وتطويل الشيء ومد الوتر، وأخذ الإبل الكلأ بسرعة وعليها أحمالها(33). وتخصيص الدلالة من الأمور التي لقيت عناية عند اللغويين العرب، فالسيوطي (911هـ) يخصص فصلاً من كتابه (المزهر) بعنوان: (فيما وضع عاماً واستعمل خاصاً)، وفيه يحشد أمثلة وافرة لهذه الظاهرة. ومن أمثلة السيوطي كلمة (الحج) وأصلُها: قَصدك الشيء، ثم خُص بقصد بيت الله الحرام(34).

3- تطور المداول:

ومن ذلك ما يقال عن تطور (الصلاة) من دلالتها على الدعاء إلى العبارة المعروفة(35)، واختلاف مفهوم (السيارة) بين القديم والحديث، وكذلك الريشة (من الدلالة على ريشة الطائر إلى ريشة الكتابة ثم إلى آلة الكتابة عموماً)(36). وهنا يساعدنا المنهج التاريخي، والتاريخي المقارن في كشف مراحل من عمر الكلمة، وإن كانت المعاجم العربية لا تسعف في ذلك كثيراً، إذ أهملت تسجيل الأزمنة المهمة من عمر الكلمة، ورصد تطورها عبرها(37).

4- اقتراض الألفاظ:

يعد اقتراض الألفاظ من عوامل ثراء اللغة، وزيادة رصيدها التعبيري، وقد يصادف أن يجد اللفظ الدخيل هيئة من اللفظ العربي تماثله حروفاً، فيصبح لدينا لفظ واحد له معنى عربي أصيل، وآخر مقترض؛ ومثال ذلك لفظة (السكْر) التي تعني في العربية نقيض الصحو، وقد استعير اللفظ (سكر) من الآرامية القديمة بمعنى (سد الشق)، ونقول في أيامنا: سكر الباب بمعنى أغلقه(38).

5- انتقال الدلالة

وهو انتقال اللفظ من الدلالة على شيء في مجال ما إلى الدلالة على شيء آخر في مجال غيره، لوجود علاقة أو ملمح مشترك بينهما يسوغ هذا الانتقال(39)، كتسمية الأندلسيين الحزام بالقلادة، بجامع إحاطتها بالشيء، وانتقال لفظة (الفصاحة) من الدلالة على زوال الرغوة عن اللبن إلى الدلالة على البلاغة والتمكن من اللغة(40).

ويرتبط انتقال الدلالة بالتحول من المحسوس المادي إلى المجرد المعنوي، فالأصل في المجد أنه امتلاء بطن الدابة بالعلاف. والأصل في الحِقْد أنه احتباس المطر(41). و(الذكاء) تغيرت دلالته من التهاب النار إلى التفوق في القدرات العقلية(42).

ولا يقتصر انتقال المعنى على تحوله من المادي إلى المعنوي فحسب، فهناك انتقال بين المحسوسات نفسها، لصلة مكانية أو زمانية؛ فالشنب انتقلت دلالته من (بريق الأسنان) إلى الشارب، وكذلك الذّقن، الذي صار يستخدم بمعنى اللحية(43).

كما يدخل في باب انتقال المعنى كثير من الكنايات والمجازات، التي تستعير الدلالات لتقوية الصورة وزيادة تأثيرها؛ ومن ذلك قولهم: كثير الرماد، للكريم. ويشار هنا إلى أن كثيراً من المجاز يشيع بين الناس، حتى يظن أنه معنى حقيقي، وليس مجازاً، وحينئذٍ يدخل هذا المجاز ضمن الرصيد اللغوي العام، الذي لا يقصد به التعبير عن غرض بلاغي ما. ويجدر التنويه بالفرق بين المشترك والمجاز، فالمجاز واقع في قولنا: ضحكت الحديقة وبكت السماء، إذ إن معنيي الإزهار والإمطار ليسا من المعاني الأصلية للكلمة، وإنما هما معنيان بلاغيان اكتُسبا من خلال السياق، وأما المشترك فالمعاني المندرجة تحت بابه هي معانٍ تدل عليها الكلمة بذاتها دونما سياق يكتنفها.

تقتضي علاقة المشابهة بين الألفاظ أن يستعار المعنى الحقيقي للفظ آخر بحكم المشابهة، ومن ذلك إطلاق كلمة المجد، التي هي في أصل معناها تعني امتلاء بطن الدابة بالعلاف، على الرفعة والغنى بالفضائل. ومن ذلك أيضاً استعارة الحقد بمعناه المعروف من المعنى الأصيل وهو احتباس المطر(44)، ومن ذلك أيضاً دلالة الذكاء في أصل معناها على التهاب جذوة النار(45). ويلاحظ على هذه الانتقالات أنها تتجه من المادي المحسوس إلى المعنوي، وهو أمر مألوف معروف وأمثلته أكثر من أن تحصى.

ومما يجدر التنويه به، أن كثيراً من هذه المجازات قد أصبحت بمرور الوقت جزءاً من المعنى الحقيقي، فينسى أنه مجاز، ويبقى للغة خاصية التوليد المتجدد للمجازات الحية، التي تلفت انتباه المتلقي، ثم يكسوها غبار الزمن فتتحول إلى معنى مألوف، يظن أنه المعنى الأصيل للكلمة.

وكلمة (بعل) مثال على انتقال المعنى من المحسوس إلى

المعنوي، ثم سيادة المعنى الثاني، فقد دلت بعل على المذكر من شجر النخيل، وعلى كل شجر لا يسقى، ثم دلت على الزوج والسيد والإله(46).

6- التطور الصوتي:

وهو عامل مهم واضح الحضور في مفردات كثيرة، تهيأت لها أسباب صوتية جعلتها تمتزج في كلمة واحدة، فتندمج بهذا كلمتان – لكل منهما معنى – في كلمة واحدة، وقد يبين لنا البحث التاريخي أن الكلمة اعترتها عوامل صوتية ولهجية أدت إلى نطقها على صورتين.

ويمثل على التطور الصوتي بالأفعال: رعش ورعس في الدلالة على الاضطراب.

ومن الأمثلة التي يتبدى فيها أثر الصوت في إيجاد كلمتين لهما معنى مشترك حلك وحنك، وهما تشتركان في معنى واحد هو الدلالة على السواد(47)، ويبدو أن الكلمتين من باب المشترك اللفظي، بدليل أن (حلك) هي التي شاعت، فكأنما اتحدت الكلمتان – للتقارب الصوتي بينهما – في كلمة واحدة (حنك).

والفعل "دعم" يعطي معنيين متضادين: قوى الشيء وأيده، أو دفعه وطعنه ورماه، وقد قيل في تعليل هذا الأمر أن أصل المعنى الثاني من الفعل دحم، وقد حدث تبادل بين الصوتين الحلقيين فقلبت الحاء عيناً.. وهنا نتجت كلمة (دعم) التي قدمت معنيين متضادين، مما يؤهلها للخروج من باب المشترك، والولوج إلى باب أكثر مناسبة لها وهو باب الأضداد.

7- أسباب صرفية:

تبتعد هذه الظاهرة عن التمثيل الحقيقي للمشترك، غير أنه يبدو من المفيد إيرادها، من باب التنويه، بما قد يكون من عدها خطأً من باب المشترك. فقد سبقت الإشارة إلى بعض ما قد يعتور البنى الصرفية من أشكال اشتقاقية مشتركة بين أكثر من موضوع صرفي(*). ومن هذا أن يختلف الأصلان الاشتقاقيان، ولكنهما يشتركان في صيغة واحدة، وأبرز ما يكون ذلك في اسم الفاعل، إذ يصاغ من الأجوف أو المهموز: سائل وثائر، التي تحتمل أن تكون من: سال أو سأل، من ثار أو ثأر، وبذلك تتوحد البنية الصرفية على معنيين مختلفين، لاختلاف الأصل. ويمثل على هذا أيضاً بجائر، التي قد تكون من جأر يجأر بمعنى رفع الصوت، أو من جار يجور بمعنى ظلم(48). ويلاحظ في هذه الأمثلة اختلاف الأصل، مما ينأى بها عن المشترك.

المشترك اللغوي... هذه الظاهرة

تراوحت وجهات النظر في المشترك، فهناك من رأى فيه عامل تنمية للغة، ومجالاً خصباً للأديب والشاعر، بما يتيحه من استعارات وتوريات وتجنيس(49)، كما يرى هؤلاء أن السياق يبقى صمام الأمان في تمييز المعنى، وأن مما يخفف من اللبس هو استبعاد وقوع لفظي المشترك في مكان واحد(50)، مما يحفظ لكل معنى صورته الواضحة في الذهن.

وهناك من يرى بأن المشترك اللغوي يضيف عبئاً جديداً إلى أعباء اللغة؛ إذ هو مصدر للغموض والإبهام(51)، كما أن المشترك يخضع لمنطق اللغة، الذي هو غير منطق العقل، بمعنى أن الأصل أن يكون للفظ الواحد معنى واحد، وأن لا يكون للمعنى الواحد سوى لفظ واحد(52).

ومن الأمثلة التي يستشهد بها عند التدليل على سلبية المشترك اللغوي، قصة الأسير الذي تم قتله، بسبب الفعل (دفأ) الذي فهم منه معنى القتل، وهذا المعنى يمثل لهجة من لهجات العرب، ووجهاً من وجوه المشترك التي من شأنها أن توقع في (مأزق) من لم يلم بهذه اللهجة!

ويبقى المشترك ظاهرة لغوية فرضت نفسها بقوة، وعلى الرغم مما قد يواجهه المرء فيها من لبس وغموض، نراها ظاهرة إلى الإيجابية أقرب، وهي شاهد على حيوية اللغة ونمائها، وإذا كنا نبهر بجمال الزهرة ونمو أوراقها وتفتق براعمها، فإن مرأى بعض الأشواك مما يرافق تلك النشأة أمر يتغاضى عنه.

المشترك: عالم في كلمة

لا شك في أهمية ما تورده المعاجم العربية من مادة غزيرة للجذر الواحد، مع ما يواكب عرض المعنى من شواهد ونصوص وإشارات لهجية... فصناعة المعاجم القديمة على هذا النحو، توفر جهداً كبيراً في قراءة المادة اللغوية.

ومما يجدر تأكيده، مسألة العودة إلى أكثر من معجم، لاستشارته في شأن كلمة، نظراً لما يحققه هذا الأمر من غنى في القراءة، وصقل للرؤية، وبخاصة أن معاني جديدة تطرأ على المادة اللغوية ضمن سنن التطور والنمو، فيستدرك اللاحق على السابق فيما فاته الاطلاع عليه، أو فيما جد على المعنى إبان عصر لاحق، فلسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، وتكملة المعاجم العربية لدوزي، تصلح أمثلة على معاجم راصدة لفترات زمنية.

وليس يغيب عن ذهن القارئ في تصفحه لبضعة مواد

معجمية، ما قد يندرج ضمن المشترك منها، سواء أكان ذلك بتعدد المعنى للفظ الواحد (المشترك المعنوي) أم بوجود عدد من الكلمات المتشابهة ذات المعاني المختلفة، اجتمعت في معانيها، وتوحد لفظها، فبدت كلمة واحدة، تجمع معاني متباعدة. ويبدو البحث في هذا الأمر شائقاً، إذ تجد نفسك إزاء كلمة صغيرة تتوالد منها أبعاد وأبعاد، وهي تدهشك بعالم من معاني اللغة وألفاظها وتراكيبها... مقننة في مادة صغيرة لا يكاد مستعمل اللغة يلتفت إليها في المهارات اللغوية التي يمارسها عفواً.

ولمزيد من التعريف بأمر المشترك، تضمن هذا البحث نظرةً في بعض النماذج المعجمية من الألفاظ التي يقوم بينها تواشج في المعاني والعلائق الرابطة بين هذه الألفاظ، وهذه خصيصة المشترك وسمته الأهم، وذلك وفق منظار تأصيلي يرجح لنا الأصل في المعنى للمادة اللغوية، ثم يوضح كيف انبثقت منه معان أخرى، وما طبيعة ذلك الانبثاق وما مدى التطور فيها، وأين موقع المجاز، وغير ذلك مما سنتبينه.

أولاً: مادة (سوس):

يطالعنا في هذه المادة كمٌّ من المعاني، منثورةً على غير هيئة منظمة، ويصعب مع ذلك ملاحظة التسلسل التطوري للمعنى، وما تفرع عنه. وقد يكون للمادة معنيان أصليان أو أكثر، غير أن المعجم القديم لا يضع في همه الإشارة إلى هذا التعدد للجذر الواحد.

وهذا ما حدث في مادة (سوس)، إذ نرى المعجم يسجل معانيها في سجل يشبه (دفتر الملاحظات)، التي تسجل فيه الأشياء كيفما اتفق، ودونما ترتيب ما. والمنتظر هنا أن تقرأ هذه الملاحظات المسجلة قراءة أخرى، تحاول التعامل مع هذا الكم من المعاني على أساس من ملاحظة الصلات بينها، مرجحة أصالة معنى وفرعية آخر، وبذلك تكون المعاني المبعثرة قد انتظمت في سلسلة لها ترتيبها ونظامها.

جاء في معنى السوس أنه العثّ، ومن ذلك ساس الطعام وأساس إذا فسد. وسوس الحب إذا أكله السوس، وساست الشاة إذا كثر قملها، وساس الرجل إذا قدح في السن، ومن ذلك السوس وهو مرض يصيب الأسنان(53).

والقول في هذه المعاني: إنها تشكل سلسلة من الدلالات يسهل على المرء أن يرد بعضها إلى بعض.

وثمة معنى آخر، قد يكون أصلياً لهذه المادة، وهو الذي دل في العبرية على الخيل. وقد بقي لنا من هذا المعنى في العربية كلمة (ساس) التي تدل على ترويض الخيل، ثم انتقل أمر الترويض من الخيل إلى الإبل، ليعم بعدها كل دابة تحتاج إلى ترويض. ثم قيس على ذلك سياسة الناس والتعامل معهم، ومما يقَر في النفس سياسة الأنبياء أقوامهم. ومن قبل ذلك سياسة الإبل والماشية، مع ما يتطلبه الأمران من حنكة وتجربة وأسلوب.

فهذه زمرة من المعاني يمكن أن يرد بعضها إلى بعض، ولا شك في أن مادة (ساس) انتهت من هذا المعنى القديم إلى ما انتهت إليه، حين استخدم المعاصرون كلمة سياسة نظيراً اصطلاحياً يقابل الدبلوماسية.

يتراءى مما سبق أن المعنيين (العث وما يتفرع منه، وسياسة الخيل) يبدو كل منهما أصلاً قائماً بذاته، وتدور في فلكه معان مشتقة. وقد يكون من حق الباحث، لولا خشية الانزلاق إلى مواطن الوهن في ربط المعاني، أن يطرح سؤالاً عن علاقة المعنى الأول، وهو السوس، بدلالة العث والمرض والكبر في العمر، بما يشتمل عليه من معاني الخضوع والضعف والوهن من جهة.. وذلك المعنى الذي يتضمنه ترويض الخيل، بمعنى خفض شوكتها وتهدئة عنفوانها، وإخضاعها لحكم السائس. ومما يغري بهذا الربط بين المعنيين، أن كلمة حصان مدلول مجازي يفترض أن يكون قد أطلق على هذا الحيوان بعد سياسته وترويضه وتهيئته ليكون حصناً يتدرع به راكبه(54).

وأما ما يشير إليه دوزي في معجمه من المعنى: سايس فلان فلاناً أي هدأه وأطفأ من غضبه ودلّله ورفهه وتصرف معه بحكمة وحذر(55)، فلا تعيي المرء الحيلة في ردها جميعاً إلى المعنى الثاني، الذي يدل على سياسة الخيل، بمعنى ترويضها.

وأما المعنى الثالث، الذي نحسب أنه من المعاني الأصيلة لـ"ساس"، فهو الدلالة على نوع من النبات، وهو القَتّ. وبالعودة إلى هذه المادة نقرأ في معنى هذا النبات صفات تؤهله للارتباط بالمعنى الأول (العث والتسوس) ومنه علاف الدواب(56)، بما يلزمه من هرس وفتّ وقتّ، وقد انتقل مفهوم القَتّ هذا نقلة مجازية، فمن الدلالة على الهرس والتسوس، إلى معنى النميمة والسعي بين الناس بالفساد (النخْر في العلاقات الاجتماعية).

فهل يكون من حقّ المرء أن يربط هذا المعنى الثالث، بالمعنى الأول، وبهذا يكون قد اقترب ما تباعد من المعاني نتيجة للتطور، والتفريع الذي لحق بها؟

غير أن ثمة معاني يتعسر إلحاقها ضمن أحد المعاني الرئيسة السابقة، إذ لا رابط يصل بينها، وإنما هي كلمات أجنبية وافقت عرضاً لفظ مادة (سوس)، فالسوسي نسيج منسوب إلى مدينة سوسة التونسية، و(ساس) لفظة قبطية دلت على ماله علاقة بالكتان والنسيج(57).

ثانياً: مادة (جدد):

تصلح هذه الكلمة مثالاً على ما ذكر في المشترك من وجود معنى عمومي واحد تتفرع منه صور لفظية مختومة بهذا الختم العمومي.

فقد دلت الجد على أب الأب (والجد أصل السلالة والنسب(58))، كما دلت على الحظوة وسعة الرزق، ومن معانيها الرجل الجد أي عظيم الحظ، والجد: العظمة، والجد الأرض الغليظة. والجد: البئر غزيرة الماء، والجد جد كذلك(59). ويقال: جد هذا مني: عظم عندي، وجد في السير: سرعه، كما يعني الفعل جد: كبر وضخم ووسع. ويسمى الوقور الرصين الماجد الشريف جدا لعظم مكانته(60). والجادة: معظم الطريق، ويقال أجد القوم: علوا جديداً من الأرض، أو ركبوا جدد الرمل(61). ويبدو أن هذا الحشد من المعاني، القديم منه والحديث يجمع على أن وجود معنى عام يشكل خلفية لهذه المعاني، وهو (العظمة والعلو).

ومن معاني الجد أيضاً البخت والحظوة، ويقال جددت بالأمر جداً إذا حظيت به، خيراً كان أو شراً. وهنا تبدأ الكلمة تنحو نحواً آخر، بما تحمله من دلالة سلبية علاوة على دلالاتها الإيجابية الكثيرة السابقة.

ومن خلال تتبع مسار هذه الكلمة نرى بوضوح كيف احتلت الدلالة السلبية للعظمة مكانة واضحة، وهكذا يكون الجد بمعنى الأمر العظيم قد احتمل عدداً من المعاني الإيجابية (وهي الأكثر) كما احتمل دلالات على النقيض من ذلك، فالبخت قد يكون حسناً رائعاً وقد يكون سيئاً، والبئر غزيرة الماء تقابلها الشاة قليلة اللبن يابسة الضرع، كما تقابلها الفلاة الجداء، أي التي لا ماء بها، كما دل الجد على القطع، فقيل حبل جَدِيد: مقطوع، وجد النخيلَ: صرمه، وقد دلت كلمة الجدِيد على الموت(62)، ولعل أصل ذلك انقطاع حياة الإنسان، وولوجه إلى عالم (جديد) منقطع الصلة بالعالم الدنيوي. ومن هنا دلت كلمة الجديد على كل (ما لا عهد لك به)(63).

وهذه اللفظة شاهد على تعدد المعنى للمشترك اللغوي، بتفتق المعنى الواحد – الحامل لدلالة عامة – عن معان جزئية، تظل – وإن تشكلت شخصيتها المستقلة – محتفظة بالمعنى الأصلي. ولأن المعنى الأصلي (العظمة في الشيء) تحتمل أن تكون في السلب والإيجاب، فقد بدأت هذه الكلمة تتفرع معانيها من مسلكين؛ أحدهما فيه طابع الغنى والعلو والخير والمجد، والآخر على النقيض منه، فيه معاني القحط والجدب والشر والقطع. وهذه طريقة سلكتها كلمة (الجد) فبدأت من ظواهر المشترك، وانتهت بدخولها باب ظاهرة أخرى هي ظاهرة التضاد.

التطور الدلالي لـ(شام) و(وشم) و(وسم)

جاء في مادة "شام" في لسان العرب أن الشام هو الخُلُق، وهو أيضاً العلامة المميزة لسائر اللون "الخال". ومن دلالات هذه الكلمة: الأثر الأسود في البدن وفي الأرض(64).

والجامع الذي التقت عليه الكلمات السابقة هي التميز بسمة من السمات. ويذكر ابن منظور أن الشيماء (وفي لغة الشوماء) هي المميزة بعلامة (الخال). وشام مخايل الشيء تطلع إليه، فكأنه يستطلع ما يتسم به. فمن أين جاءت دلالة "التميز والاتسام بعلامة ما؟".

يقول ابن منظور: الانشيام: الدخول في الشيء، وشامه الشيب: دخل فيه وكثر (بمعنى أصبح علامة بارزة له). والشيأم: الحفر والأرض الرخوة. والمشيمة: المرأة التي فيها ولد. وقد جاء في مادة "وشم" ما يؤيد المعنى السابق "الدخول في الشيء" فيذكر ابن منظور أن الوشم: ما تجعله المرأة على ذراعها بالإبرة، ثم تحشوه بالنؤور، وهو دخان الشحم. ووشم اليد وشما: غرزها بالإبرة(65)... وهذا يؤكد أن معنى "الإدخال" هذا من الدلالات الأصلية في الكلمة.

ويطالعنا في مادة "وسم" من لسان العرب دليل جديد على أن معنى الدخول والإدخال في الشيء هو أصل للمواد: شام، وشم، وسم، مع الأخذ بعين الاعتبار ما حصل في هذه المفردات من قلب مكاني(66)، وتبادل بين صوتي المد (الواو والألف)، والتبادل بين الصوتين المتجانسين(*) (السين والشين)، وهو أمر معروف مستساغ في العربية.

نماذج تطبيقية

التطور الدلالي لكلمة (بعل)

يذكر ابن منظور(67) أن البعل معناه الأرض المرتفعة، ومن معاني هذه المفردة أيضاً: كل شجر لا يسقى، وهو الشجر المزروع في الأراضي المرتفعة، وصفة هذه الأراضي أنها لا يصيبها المطر إلا مرة واحدة في السنة.

كما جاء في اللسان أن كلمة (بعل) تعني الذكر من النخل، ويقال: استبعل النخل: تحول من السقي إلى البعلي.

ثم انتقلت دلالة الكلمة إلى عالم الإنسان، فالبعل هو الزوج من الذكور. ويقال للمرأة بعلة. (ولعل هذا من باب قولهم زوج وزوجة). ومع أن المؤنث (بعلة) دل على الأنثى، إلا أن هذه الكلمة (بعل) اختصت بالدلالة على الذكر، ومن ذلك

ذكر النخيل، والذكر من الإنسان، ومنه أيضاً الابن. ويلاحظ هنا أن (بعل) لا تطلق على الابن إلا إذا كان سيداً حراً، فقيل: أن تلد الأمة بعلها: سيدها.

وخلال رحلة هذه الكلمة اكتسبت دلالة جديدة، هي الصنم، وكانت تطلق على صنم بعينه، ثم عممت الدلالة، فصارت تعني كل صنم. وذكر صاحب اللسان أن (البعل) هو اسم لملك من الملوك.

وبعد هذا التتبع لبعض معاني هذه المفردة، يطرح التساؤل نفسه: ما أصل هذه الدلالات الكثيرة، التي بينها نوع من الانسجام والتشابه؟ إن نظرة في معاجم الساميات تسعف في الإجابة عن هذا التساؤل.

يذكر بيرجشتراسر أن معنى هذه الكلمة في اللغات السامية هو الإله، أو الزوج. ومن اللغات السامية التي استشهد بها: العربية الجنوبية (ba^{c}L)، والأرمية (ba^{c}L$^{\alpha}$)، والعبرية (ba^{c}aL)، والأكدية (b^{-e}Lu)(68).

وجاء في معجم جزينيوس أن كلمة (بعل) تعني الزوج أو الحاكم(69). وأما لسان العرب، ففيه أيضاً ما يؤكّد الدلالة السابقة، فقد ذكر ابن منظور عبارة (أنا بعل الشيء: أي ربه ومالكه)(70).

ويمكننا الاطمئنان بعد الرجوع إلى شقيقات العربية الساميات، إلى أن أصل المعنى في هذه الكلمة دلالتُها على الإله والمالك والحاكم والزوج، ومن ثم تطورت الدلالة، فأطلقت على الأرض المرتفعة، بعلية الشجر، إذ إن هذا الشجر يتعهده الإله، وليس بحاجة إلى سقْي. كما أُطلقت على الصنم من باب ألوهيته عند الوثنيين، والدلالة في هذه الكلمة اختصت بالذكور دون الإناث، وهو أمر مرتبطٌ بغلبة السيطرة للذكور على الإناث، وخاصة في العصر الجاهلي.

ومن تمام الحديث في (بعل) أن نعرج على ما قاله أنيس فريحة في معجمه، من أن اسم المدينة اللبنانية (بعلبك) كلمة سامية مركبة، الجزء الأول منها Ba'cel يعني المالك والصاحب أو الرب، والجزء الثاني بك Bak وهو اسم لصنم، فمعناها إذن رب الصنم(71). ويذْكر أنها تعني: رب البِقاع (البقاع هنا مرتبطة بالمعنى الذي أشرتُ إليه سابقاً، وهو الزرع النابت في المناطق المرتفعة). كما يذكر فريحة أن هذه المدينة (بعلبك) تعني مدينة الشمس عند الرومان(72).

التطور الدلالي لـ(رعش) و(رعس)

تُطالعنا في المعجم العربي جذورٌ لغوية ينطوي ملفها الداخلي على ألفاظ تتكرر معانيها في جذور أخرى.

وسأوضح المراد بهذه الظاهرة من خلال مادتي "رعش" و"رعس" وما نجده بينهما من معانٍ متشابهة.

هل يمكن أن نعد "رعش" و"رعس" مادة واحدة، والفرق بينهما فرقٌ لهجي ليس إلاّ؟ يذكر السيوطي في (المزهر) أن بعض العرب كانت تُبادِل بين السين والشين(73). ومن أمثلة تبادلهما: الشجر والسجر والحسف والحشَف من التمر (الرديء)(74)... أم تُرى أن الأمر يعود إلى نظام الكتابة العربية، الذي يعد فيه نظام النقط طارئاً؟ فيكون حال "رعش" و"رعس" كحال كثير من الكلمات التي تحمل المعنى نفسه، وتختلف في نَقْط حروفها: تفاطير ونفاطير "نبات الفطر" وشريف الزرع وشرنَف: إذا طال وعلا.

وعودةً إلى "رعش" و"رعس" فإن المعجم العربي يؤكد أن المرتعش والمرتعس لهما المعنى نفسه: المضطرب، يقول ابن منظور: "والارتعاس من الارتعاش، وأرعسه مثل أرعشه"(75)، وقد تكرر قوله هذا في مادة "رعس"(76). ولا يستبعد أن يكون مرد الاختلاف النطقي في الكلمتين إلى السببين معاً:

- التّصحيف المترتّب على نظام الكتابة.
- اختلاف اللهجات.

ولو استأنسنا بالقوانين الصوتية التي تحكم اللغات الشقيقة للعربية، فقد يميل المرء إلى أن السين هي الأصل، فقد وردت في العبرية "رعش" بالشين(77)، ويغلب على الكلمات التي ترد في العبرية بالشين أنها تقابل كلمات عربية مماثلة لها بالسين(78).

ويمثل هذه الكلمة بالأكدية (rēšu)، والقانون الصوتي الذي حكم العربية والعبرية هو نفسه ما يحكم العربية والأكدية(79).

ومما يشجع على عد المادتين مادة واحدة في الأصل أن المرء لا يكاد يجد معنى في الأولى يصعب رده مع نظيره مما ورد في المادة الأخرى، فالكلمتان تدلان على: الاضطراب، الجبن، السرعة، هز الرأس أثناء المسير، وأما من ذهب من العلماء إلى أن "رعشن" بالنون بناء رباعي على حده(80)، فيرده رأي من ذهب إلى أن النون زائدة. وأنا مع هذا الرأي، إذ قد تزاد النون في كثير من الكلمات للمبالغة، فيقال للمرأة الخلابة: خَلْبن، وعلى هذا فإن الرعشن بالنون من هذا الباب.

التطور الدلالي لكلمة "أرض"

جاء في لسان العرب: الأرض: التي عليها الناس كما جاء في تعريف هذه اللفظة أنها أسفل البعير والدابة، وما ولي

الأرض منه، والأرض: أسفل قوائم الدابة(81).

يلاحظ على المعاني السابقة أنها تشترك في دلالة واحدة: الموضع السفلي أو الدوني. وقد تفرع من هذا المعنى قولهم: أرض الإنسان: الركبتان فما دونهما. والأرض النعل: وما أصاب الأرض منه.

كما تفرع من هذه الكلمة معانٍ أخرى اكتسبت دلالةً إضافية متعلقةً بالأرض (بمعنى اليابسة التي نعيش عليها)، ومن ذلك معنى الرسوخ والمكوث، يقال تأرض فلان بالمكان، إذا ثبت فلم يبرحه، والتأريض بمعنى جعل الماء في السقاء.

ومن الراجح أن الدلالات السابقة التي تحمل معنى المكوث والرسوخ مأخوذة في الأصل من التأرض وهو تمكن النبت من أن يجز، ويذكر صاحب تاج العروس(82) أن التأريض في المنزل: أن ترتاده وتتخيره للنزول، كما أن من معاني التأريض: نية الصوم وتهيئته من الليل، وواضح أن لهذين المعنيين صلة بالمعنى السباق (التريث والتأني).

ولعل من الظريف أن نجد من دلالات هذه الكلمة عكس المعاني السابقة (الرسوخ والتريث والثبات)، فقيل الأرض: الزكام، كما قيل: دوار يأخذ في الرأس... فيهراق له الأنف والعينان، وقيل أيضاً: الرعدة والنفضة، ومنه الزلزال، والمأروض: الذي به خَبَل من الجن وأهل الأرض، فيحرك رأسه وجسده على غير عمد.

فالدلالة الجديدة التي تحمل سمة الحركة والاهتزاز تطورٌ اتّخذ هيئة المقابل والضد. ويدخل في إطار هذه الدلالة الجديد، كلمة "الأرضة" وهي دودة بيضاء كالنملة، ويقال أرضت الخشبة: إذا وقعت بها الأرضة وأكلتها.

ويقال للمكان إذا كثُر عشبه: ما آرض المكان! كما جاء في لسان العرب. ويبدو لي أن المعنى مقْتبس من اهتزاز الأرض وحركة ترابها إذا نزل المطر، فينبت بذلك العشب. ويقول الزبيدي إن الأرضة هي الكلأ، وابن الأرض هو نبتٌ يخرج في رؤوس الإكام.

فمن مدلولات "الأرض" إذاً: الاهتزاز والحركة والخِصب. وقد انتقل المعنى المادي للخصب من الزرع، إلى صورة أخرى مادية أيضاً. فقيل الأريض هو السمين. وما لبث المداولُ المادي أن انتقل إلى المداول المعنوي، فأُطلقت "الأريض" على الرجل المتواضع الخير، كما أُطلِقت "الأريضة" على المرأة الولود، من باب تشبيهها بالأرض في العطاء والخصب.

ويشار هنا إلى أن كلمة "أرض" وردت بالمعنى الشائع لها (التي عليها الناس) في كل من العربية الجنوبية "الحبشية" 'rḍ، والأرمية ar^{c-}a، والعبرية 'eres، والأكدية ersetu(83).

درم:

الدرم في كعب القدم أن يوازيه اللحم حتى لا يكون له حجم، وقد دل الدرم على استواء الكعب وعظْم الحاجب. والأدرم هو من لا حجم لعظامه، وأما المرأة الدرماء فهي التي لا تستبين كعوبها.

ثمة خيط جامع بين الدلالات السابقة، ولو أردنا أن نسمي هذا الخيط الجامع لسميناه (الاستواء) فالدلالات السابقة تتضمن معنى الاستواء، ومما يؤيد ذلك بقية المعاني الواردة تحت (درم)، فالأدرم هو من تحاتت أسنانه، بمعنى زالت نتوءاتها فاستوت، أو سقطت أسنانه.

ويلاحظ أن المعاني السابقة يختص كلٌ منها بجزئية معينة، غير أن الجزئيات بمجموعها تشكل إطاراً واحداً هو المعنى العام القائم على فكرة (الاستواء).

الخـاتمـــة

تعرضت هذه الدراسة للمشترك اللغوي، بالنظر في مفهومه وأسبابه وبعض قضاياه الحساسة، وقد خرجت الدراسة بالنتائج الآتية:

1- تعددت المصطلحات الدالة على مفهوم المشترك في اللغة العربية وفي غيرها، وتعدد التسميات دون توظيف دقيق لها أمر لا حاجة له. وفي الوقت نفسه لا بد من الحذر من التعميم الواسع، الذي سار عليه اللغويون القدماء ممن تعرضوا للمشترك. وبعد التدقيق في مفهوم الظاهرة تتوضح الحاجة إلى مصطلحين:

أ- المشترك اللفظي Homonymy الدال على كلمة تكونت من عدة ألفاظ متباينة معنى ومتقاربة صوتاً وهجاء.

ب- المشترك المعنوي Polysymy ويعني تعدد المعاني التي تدل عليها كلمة واحدة.

2- قد تبدو العلاقة اعتباطية بين معاني المشترك في كثير من الأحيان، ولا سبيل إلى الكشف عن تلك العلاقة إلا بتتبع المعاني التي جاءت عليها ألفاظ المشترك، وتلمس مواطن القرب والتواصل بينها. وثمة ألفاظ يصل بنا البحث فيها إلى طرق موصدة، والراجح فيها أن أعماراً من عمرها قد أُسقطت ولم تصل إلينا، ولا سيما أن المعاجم العربية تعاني فقراً شديداً في الجانب التاريخي، على أهميته في خدمة هذه الظاهرة وغيرها.

3- الترادف ظاهرة تقابل المشترك وتناقضه، وليست شكلاً

من أشكاله، إذ الترادف ألفاظ عدة تعطي معنى واحداً، وأما المشترك فهو تعدد المعنى للفظ واحد، فالتضاد بينهما ظاهر.

4- يلعب الجانب الصوتي دوراً فاعلاً في تكوين المشترك، عن طريق ما يعتور الكلمات من إبدال وقلب مكاني، وبهذا يكون الصوت عاملاً بارزاً من عوامل تكوين المشترك، وبحثه بحاجة إلى جهد واسع، لغزارة الأمثلة وتنوعها.

5- على الرغم مما يثار حول المشترك من إشكالات الغموض واللبس، إلا أنه ظاهرة تشهد بحيوية اللغة، وصحتها، وبخاصة أنه يقوم على عرى ووشائج موجودة بالفعل بين الألفاظ، ووظيفة المشترك هي (لَملمة) المعاني الخاصة باللفظة الواحدة.

الهوامش

(1) ابن بنين الدقيقي النحوي، اتفاق المباني وافتراق المعاني، 39-40.

(2) السيوطي، المزهر، 369/1.

(*) أكثر المراجع ذكرت المصطلح (Polysemy)، وقد ورد لدى جون لاينز مصطلح آخر هو (Multiple Meaning). انظر: لاينز، علم الدلالة، 83.

(3) ينظر: أحمد مختار عمر، 169.

(4) أولمان، دور الكلمة في اللغة، 146.

(5) ينظر: جيل، في علم الدلالة، دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، 314.

(6) أنيس، دلالة الألفاظ، 105.

(7) راجع المادتين (دفأ) و(دفف) من لسان العرب.

(8) الخولي، مدخل إلى علم اللغة، 139.

(9) عبد التواب، فصول في فقه اللغة، 332.

(10) ابن منظور، لسان العرب، مادة (عين).

(11) مختار، علم الدلالة، 170.

(12) ابن منظور، لسان العرب، مادة (أرض).

(13) عمر، علم الدلالة، 170.

(14) نفسه، 170.

(15) جيل، في علم الدلالة، 294.

(16) نفسه، 294.

(17) شاهين، المشترك اللغوي، 15.

(18) ابن جني، الخصائص، 145/3 (باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني).

(19) نفسه، 489/2.

(20) نفسه، 490/2.

(21) ابن جني، شرح ديوان المتنبي، 19.

(22) أنيس، دلالة الألفاظ، 106.

(23) أولمان، دور الكلمة في اللغة، 151.

(24) عمر، علم الدلالة، 161.

(25) أنيس، دلالة الألفاظ، 121.

(26) عمر، علم الدلالة، 149.

(27) الجواليقي، المعرب، 53.

(28) مجاهد، الدلالة اللغوية، 112، وانظر: توفيق شاهين، المشترك اللغوي، 54.

(29) صبيح، دراسات في اللغة والنحو والأدب، 51، وقد ذكر السيوطي شيئاً من ذلك، انظر: السيوطي، المزهر، 369/1.

(30) مجاهد، الدلالة اللغوية، 116.

(31) عبد التواب، فصول في فقه اللغة، 329.

(32) شاهين، المشترك اللغوي، 59.

(33) العناتي، التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية، 276.

(34) السيوطي، المزهر، 427/1.

(35) نفسه، 276.

(36) مجاهد، الدلالة اللغوية، 117.

(37) فيشر، المعجم اللغوي التاريخ، 244.

(38) عبد التواب، فصول في فقه اللغة، 331.

(39) جيل، في علم الدلالة، 242.

(40) ابن منظور، لسان العرب، مادتا (قلد، فصح).

(41) حماد، عوامل التطور اللغوي، 127.

(42) أنيس، دلالة الألفاظ، 160.

(43) ابن منظور، لسان العرب، مادة شنب.

(44) حماد، عوامل التطور اللغوي، 127.

(45) أنيس، دلالة الألفاظ، 160.

(46) ينظر ما قيل في هذه الكلمة في ابن منظور، لسان العرب، مادة (بعل).

(47) ابن منظور، لسان العرب، المادتان: (رعش ورعس).

(*) ينظر: ص6 من هذه الدراسة.

(48) العناتي، التباين، 276.

(49) شاهين، المشترك اللغوي، 24، 29.

(50) أولمان، دور الكلمة في اللغة، 148-150.

(51) نفسه، 136.

(52) شاهين، المشترك اللغوي، 28.

(53) ابن منظور، لسان العرب، مادة (سوس)، والزبيدي، تاج العروس، مادة (سوس).

(54) نفسه، مادة (حصن).

(55) دوزي، تكملة المعاجم، مادة (سوس).

(56) ابن منظور، لسان العرب، مادة (قتت).

(57) دوزي، تكملة المعاجم العربية، مادة (سوس).

(58) نفسه، مادة (جدد).

(59) ابن منظور، لسان العرب، مادة (جدد).

(60) دوزي، تكملة المعاجم العربية، مادة (جدد).

(61) الزبيدي، تاج العروس، مادة (جدد).

(62) ابن منظور، لسان العرب، مادة (جدد).

(63) نفسه.

(64) ابن منظور، لسان العرب، ج12، مادة (شيم).

(65) نفسه، ج12، مادة (وشم).

(66) نفسه، ج12، مادة (وسم).

(*) كلاهما (السين والشين) صوت احتكاكي ولثوي وغير مجهور.

(67) المعاني المذكورة للكلمة (بعل) جميعها من لسان العرب، مادة بعل (ج11).

(68) بيرجشتراسير، مقدمة في علم الساميات، 182.

(69) جزينيوس، معجم عبري – إنجليزي، 127.

(70) ابن منظور، لسان العرب، ج11، مادة (بعل).

(71) فريحة، أنيس، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، 52.

(72) نفسه، ص52.

(73) السيوطي، المزهر، ج1، 548.

(74) نفسه، ج1، 548.

(75) ابن منظور، لسان العرب، مادة (رعش).

(76) نفسه، ج6، مادة (رعس).

(77) كمال، معجم عبري - عربي، 453.

(78) كمال، دروس اللغة العبرية، 76.

(79) جيزينيوس، معجم عبري – إنجليزي، 910.

(80) ابن منظور، لسان العرب، مادة (رعش).

(81) نفسه، مادة أرض.

(82) الزبيدي، تاج العروس، مادة (أرض).

(83) بيرجشتراسر، مقدمة في علم الساميات، 185.

المصادر والمراجع

ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد النجار، ط2، دار الهدى، بيروت، لبنان.

________، شرح ديوان المتنبي، تحقيق صفاء خلوصي، 1977، وزارة الثقافة.

ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت.

أنيس، إبراهيم، 1958، دلالة الألفاظ، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية.

أولمان، ستيفن، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، ط12، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.

الجواليقي، أبو منصور، المعرب من الكلام الأعجمي، تحقيق أحمد محمد شاكر، 1969، دار الكتب المصرية.

جبل، عبد الكريم، 1997، في علم الدلالة: دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، دار المعرفة الجامعية.

حماد، أحمد عبد الرحمن، 1983، عوامل التطور اللغوي، ط1، دار الأندلس للطباعة.

خليل، حلمي، 1993، الكلمة: دراسة لغوية معجمية، دار المعرفة الجامعية.

دوزي، رينهارت، تكملة المعاجم العربية، ترجمة محمد النعيمي، 1982، دار الشؤون الثقافية.

الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق عبد السلام هارون.

السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرون، دار الفكر.

شاهين، توفيق، 1980، المشترك اللغوي نظريةً وتطبيقاً، ط1، مطبعة الدعوة، القاهرة.

صبيح، إبراهيم وآخرون، 1997، دراسات في اللغة والنحو والأدب، ط2، دار المناهج، عمان.

عبد التواب، رمضان، فصول في فقه اللغة، ط2، مكتبة الخانجي.

عمر، أحمد مختار، 1982، علم الدلالة، ط1، مكتبة دار العروبة، الصفاة، الكويت.

العناني، وليد، التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية.

فيشر، أوغست، 1967، المعجم اللغوي التاريخي، الهيئة العامة للمطابع الأميرية، القاهرة.

لاينز، جون، علم الدلالة، ترجمة حليم حسين وآخرين، 1980، كلية الآداب، جامعة البصرة.

مجاهد، عبد الكريم، 1985، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء للنشر، عمان.

Polysemy in Arabic

Hanan I. Amaireh*

ABSTRACT

This study addresses one of the linguistic phenomena in Arabic which is the polysemy. Polysemy is divided into two parts: a- meaning polysemy: the word has more than one meaning. These multi-meanings are very close to each other.

Vocal polysemy: The Word is common between more than one meaning which are irrelevant.

This study addressed the concept of polysemy and the factors which form this linguistic phenomenon. The study also presented a theoretical side concerning some polysemy in Arabic which were followed lexically so that this phenomena becomes more clear.

Keywords: Polysemy, Theory and Application.

---

* The Language Center, University of Jordan, Amman, Jordan. Received on 6/12/2005 and Accepted for Publication on 7/8/2006.

---

(1) ابن بنين الدقيقي النحوي، **اتفاق المباني وافتراق المعاني**: 39-40.

(2) إلسيوطي، **المزهر**: 369/1.

(*) أكثر المراجع ذكرت المصطلح (Polysemy)، وقد ورد لدى جون لاينز مصطلح آخر هو (Multiple Meaning). انظر: لاينز، **علم الدلالة**: 83.

(3) ينظر: احمد مختار عمر. 169.

(4) أولمان، ستيفن، **دور الكلمة في اللغة**: 146.

(5) ينظر جيل، عبد الكريم، **في علم الدلالة: دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات**: 314.

(6) أنيس، إبراهيم، **دلالة الألفاظ**: 105.

(7) راجع المادتين (دفأ) و(دوف) من لسان العرب.

(8) الخولي، محمد علي، **مدخل إلى علم اللغة**: 139.

(9) عبد التواب، رمضان، **فصول في فقه اللغة**: 332.

(10) ابن منظور، **لسان العرب**: مادة (عين).

(11) مختار، احمد، **علم الدلالة**: 170.

(12) ابن منظور، **لسان العرب**: مادة (أرض).

(13) عمر، أحمد مختار، **علم الدلالة**: 170.

(14) نفسه: 170.

(15) جيل، عبد الكريم، **في علم الدلالة**: 294.

(16) نفسه: 294.

(17) شاهين، توفيق، **المشترك اللغوي**: 15.

(18) ابن جني، **الخصائص**: 145/3 (باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني).

(19) نفسه: 489/2.

(20) نفسه: 490/2.

(21) إبن جني، **شرح ديوان المتنبي**: 19.

(22) إنيس، إبراهيم، **دلالة الألفاظ**: 106.

(23) أولمان، ستيفن، **دور الكلمة في اللغة**: 151.

(24) عمر، احمد مختار، **علم الدلالة**: 161.

(25) أنيس، إبراهيم، **دلالة الألفاظ**: 121.

(26) عمر، أحمد مختار، **علم الدلالة**: 149.

(27) الجواليقي، **المعرب**: 53.

(28) مجاهد، عبد الكريم، **الدلالة اللغوية**: 112، وانظر: توفيق شاهين، **المشترك اللغوي**: 54.

(29) صبيح، إبراهيم وآخرون، **دراسات في اللغة والنحو والأدب**: 51، وقد ذكر السيوطي شيئاً من ذلك، انظر: السيوطي، **المزهر**: 369/1.

(30) مجاهد، عبد الكريم، **الدلالة اللغوية**: 116.

(31) عبد التواب، رمضان، **فصول في فقه اللغة**: 329.

(32) شاهين، توفيق، **المشترك اللغوي**: 59.

(33) العناتي، وليد، **التباين وأثره في تشكيل النظرية اللغوية العربية**: 276.

(34) السيوطي، **المزهر**: 427/1.

(35) نفسه: 276.

(36) مجاهد، عبد الكريم، **الدلالة اللغوية**: 117.

(37) فيشر، **المعجم اللغوي التاريخ**: 244.

(38) عبد التواب، رمضان، **فصول في فقه اللغة**: 331.

(39) جيل، عبد الكريم، **في علم الدلالة**: 242.

(40) ابن منظور، **لسان العرب**: مادتا: قلد، فصح.

(41) حماد، احمد، **عوامل التطور اللغوي**: 127.

(42) أنيس، إبراهيم، **دلالة الألفاظ**: 160.

(43) ابن منظور، **لسان العرب**: مادة شنب.

(44) حماد، احمد عبد الرحمن، **عوامل التطور اللغوي**: 127.

(45) أنيس، إبراهيم، **دلالة الألفاظ**: 160.

(46) ينظر ما قيل في هذه الكلمة في ابن منظور، **لسان العرب**: مادة (بعل).

(47) ابن منظور، **لسان العرب**: المادتان: رعش ورعس.

(*) ينظر: ص6 من هذه الدراسة.

(48) العناتي، وليد، **التباين**: 276.

(49) شاهين، توفيق، **المشترك اللغوي**: 24، 29.

(50) اولمان، ستيفن، **دور الكلمة في اللغة**: 148-150.

(51) نفسه: 136.

(52) شاهين، توفيق، **المشترك اللغوي**: 28.

(53) ابن منظور، **لسان العرب**: مادة (سوس)، والزبيدي، **تاج العروس**: مادة (سوس).

(54) نفسه: مادة (حصن).

(55) دورزي، **تكملة المعاجم**: مادة (سوس).

(56) ابن منظور، **لسان العرب**: مادة (قتت).

(57) دوزي، **تكملة المعاجم العربية**: مادة (سوس).

(58) نفسه: مادة (جدد).

(59) ابن منظور، **لسان العرب**: مادة (جدد).

(60) دوزي، **تكملة المعاجم العربية**: مادة (جدد).

(61) الزبيدي، **تاج العروس**: مادة (جدد).

(62) ابن منظور، **لسان العرب**: مادة (جدد).

(63) نفسه.

(64) ابن منظور، **لسان العرب**: ج12، مادة (شيم).

(65) نفسه: ج12، مادة (وشم).

(66) نفسه: ج12، مادة (وسم).

(*) كلاهما (السين والشين) صوت احتكاكي ولثوي وغير مجهور.

(67) المعاني المذكورة للكلمة (بعل) جميعها من لسان العرب، مادة بعل (ج11).

(68) بيرجشتراسير، **مقدمة في علم الساميات**: 182.

(69) جزينيوس، **معجم عبري – إنجليزي**: 127.

(70) ابن منظور، **لسان العرب**: ج11، مادة (بعل).

(71) فريحة، انيس، **اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها**: 52.

(72) نفسه: ص52.

(73) السيوطي، **المزهر**: ج1، 548.

(74) نفسه: ج1، 548.

(75) ابن منظور، **لسان العرب**: ج6، مادة رعش.

(76) نفسه: ج6، مادة رعس.

(77) كمال، ربحي، **معجم عبري - عربي**: 453

(78) كمال، ربحي، **دروس اللغة العبرية**: 76.

(79) جيزينيوس، **معجم عبري – إنجليزي**: 910.

(80) ابن منظور، **لسان العرب**: ج6، مادة رعش.

(81) نفسه: ج7، مادة أرض.

(82) الزبيدي، **تاج العروس**: ج18، أرض.

(83) بيرجشتراسر، **مقدمة في علم الساميات**: 185.